المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولو الالباب

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و« منارا » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الخميس ١٦ شعبان سنة ١٣٢٩ — ٢٨ نوفمبر (ت٢) سنة ١٩٠١)

الاصلاح والاسعاد . على قدر الاستعداد

يرى الباحثون في العمران والمشتغلون بعلم الاجتماع بعد النظر في تاريخ الامم أن كل اصلاح وجد في العالم فانما كان بواسطة رجال فاقوا شعوبهم ببعد النظر وصحة الفكر وعلوّ الهمة وقوة العزيمة والارادة فتقدموهم ثم قدموهم وارتقوا بهم الى المكانة العالية ، والمنزلة السامية ، ولافصل في هذا بين الاصلاح الديني والعلمي والاصلاح الماديّ والسياسي . ويقول هؤلاء الناظرون ما بال بعض الممالك والاقطار ، تمر عليها القرون والاعصار ، وهي تضعف وتذل ، وتذوب وتضمحل ، ولا يَنْبُتُ في ارضها رجل عظيم ، ينقذها من هذا الرجز الأليم ، ما بال الشعوب الاسلامية قد تحوّل عزها الى ذل ، وكثرها في كل خير الى قلّ ، وعلمها الى جهل ، ولم يظهر فيها ملك حكيم ، ولا إمام عليم ، يجدد لها مجدها ، ويرجع اليها عزها ، وأين مصداق مايروونه عن نبيهم (صلى الله عليه وسلم) من قوله : « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدّد لهذه الامة

أمر دينها . » ؟؟ »

انما يقول هذا الباحثون فى الظواهر والناظرون فى الصور السطحية والذين يكتفون الحقائق ويغوصون فى الاعماق ويفقهون الاسرار ، وتمتد أشعة بصائرهم الى ما وراء الاستار ، يعلمون انه ما قام مصلح فى أمة من الأمم بعمل من الاعمال تغيرت له حالة الأمة ، وارتقت بهم من الحضيض الى القمة ، الا بعد أن استعدت تلك الأمة لقبول ذلك الاصلاح بتأثير الزمان وتقلب الحدثان ، او بانتشار العلم والعرفان ، فللاصلاح شرطان اوّلهما استعداد الأمة لقبوله والثانى الزعيم الداعي اليه من طريقه الطبيعي مع الكفاءة والاضطلاع . فاذا ظهر مثل هذا الكفؤ للقيام بالاصلاح فى قوم ورآهم غير مستعدين لقبول اصلاحه فانما يشتغل بالسعي فى إعدادهم وتهيئتهم للاخذ باركان ذلك الاصلاح ولا يدعوهم اليها فى اوّل الامر وربما يقضي عمره فى ايجاد الوسائل غير بائح بسر من اسرار المقاصد الا ما يودعه فى أطواء الكلام ، من الاجمال والابهام ، كالكناية والتورية ، وما يشبه الالغاز والتعمية ، فاذا هو صرح للقوم بالمراد ، ودعاهم الى خلاف ما هم عليه من التقاليد والعاد ، تقوم عليه القيامة ، وتتوجه اليه سهام الملامة ، بل تنصب عليه قذائف القاذفين ، ولعنات اللاعنين ، وينزل به البلاء المبين ، ويكون فى عمله من الخاسرين ،

المصلح إما داعٍ ذو بيان ، يستصرخ الشعور والوجدان ، ويستفز العقل والجنان ، دالاً على طريق الاسعاد ، هادياً الى سبيل الرشاد ، واما ملك مستبد ، حكيم مستعد ، على امة خاملة ، ورعية جاهلة ، يحملها بالقهر والإلزام ، على ما يطلب ويرام ، وكل منهما مطالب بمراعاة استعداد

الأمة ودرجة قابليتها ولكن الأول يحتاج من ذلك الى اكثر مما يحتاج اليه الثاني لانه يدعو النفوس الى العمل باختيارها وانما العمل الاختياري ما توجهت اليه الارادة بباعث العلم والاذعان بان فيه اجتناب مفسدة او اجتلاب مصلحة وليس لأحد سلطان على النفوس يفهمها ما لم تستعد لفهمه ، ويقنعها بما لا تحيط بعلمه ، واذا عجز المستبد عن التسلط على الضمائر ، والسيطرة على السرائر ، فلا يعجز عن التصرف بالظواهر ، بأن يلزم الناس بالأعمال النافعة وان لم يعتقدوا نفعها حتى اذا جاء وقت الجني والقطوف ، عرفوا ما لم يكن بمعروف ، فكانوا كمن يقاد للجنة بالسلاسل

ان كون الاصلاح والاسعاد ، على قدر الاستعداد ، قاعدة عامة شاملة للاصلاح الذي جاء به الانبياء عليهم الصلاة والسلام فان الله تعالى لم يبعثهم الا مسعدين ، ومصلحين للمستعدين ، وقد « كان الناس أمة واحدة » في الجهالة والهمجية ، والوقوع في شرك الشرك والوثنية ، « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » بعدما استعد بعض الناس لفهم التوحيد وقبول الدين ، ورجي ان يُعدو بإيمانهم الآخرين ، ولنقص الاستعداد وضعف العقول أيّد الله تعالى الانبياء بالآيات البينات ، التي اعتاد الاكثرون على الخضوع لمثلها مما يخالف المألوفات ، ولا ينطبق على سائر العادات ، ومع هذا كله كانوا يضربونهم ويطردونهم ، وفي بعض الأحيان يقتلونهم ، ومنهم من لم يؤمن به أحد او الا الرجل والرجلان ومنهم من آمن به العدد الكثير ، ثم ارتدوا وفسقوا بعد زمن قليل او كثير ، وقد بينا من قبلُ استعداد العرب لبعثة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما

امتازوا به على الأمم لقبول اصلاحه (راجع ج ٤ م ٣)

انما مثل النوع الانساني في مجموعه كمثل الفرد الواحد من افراده فالشعب الجاهل من شعوبه كالطفل لا يمكن ان تجعله رجلا كاملاً الا بتربيته على اخلاق الرجولية بالتدريج الطبيعي فاذا كلفته بما يكلف به الرجال من عويص المسائل ، وحل عقد المشاكل ، فأمرك لا يطاع ، لانه بما لا يستطاع ، كذلك حال من يكلف شعباً من الشعوب أو أمة من الامم بان تجاري في طور ضعفها الامم القوية ، وتبارى في إبان جهلها من سبقها في جميع الطرق العلمية ، من غير ان يربيها على ذلك بالتدريج الذي عرف من سنن الله تعالى في الأولين كالابتداء بازالة الموانع ، والتثنية بإزالة المنافع ، او بتقديم التخلية على التحلية كما يقول السادة الصوفية . وانما نعني التقديم والتأخير في المرتبة لا في الزمن

تربية الأمم ليست بالمركب الذلول وطريقها ليس بالطريق المعبَّد . وانما هي الحَرون في الحُزُون يتوقع راكبها الهلكة في كل حركة وما كان بسمرك هو المربي لالمانيا والمبدع للوحدة الجرمانية ولا بيكنسفيلد هو المربي لانكلترا ولا غامبتا هو المربي لفرنسا ولا غورجيقوف هو المربي لروسيا ولا امثال هؤلاء السياسيين من الفلاسفة والعلماء وانما مربي اوروبا كلها اولئك الذين اضطهدوا وأُذلوا وأُبعدوا وصُلّبوا وقتلوا تقتيلا أن دعوا الناس لاصلاح عقائدهم وعوائدهم وتغذية عقولهم بلبان العلم والعرفان فأعدوا أقوامهم لكل ماهم فيه الآن من العزة والشمم ، والسيادة على الامم ، اولئك الذين كانوا يرمون بالكفر والزندقة وافساد الاعتقاد والجناية على البلاد والعباد ، فصاروا الآن يوصفون بالامامة ، ويحلهم

التاريخ محل الكرامة ، ويذكرون بالتعظيم والتبجيل ، وترفع لهم الهياكل وتنصب التماثيل ، وأعظمهم عندي لوتر مصلح الدين ، ومزيل العقبة الكبرى من طريق جميع الاوربيين ،

من اسباب الاستعداد لقبول اصلاح مّا مباشرة من صلح حالهم به من قبل ومشاهدة اطوارهم ، والوقوف على اخبارهم ، عند ما وقفوا ببابه ، وانشأوا يأخذون بأسبابه ، . ومن اسبابه ان يتسلط على الأمة من يسلبها ثوب مجدها وينزع عنها تاج كرامتها ويستأثر بمنافعها ويستولي على مرافقها . ومن اسبابه ان يمر عليها حين من الدهر مهدّدة بقلب كيانها ، وتقويض اركانها ، وازالة سلطانها ، ممن يقدر على ذلك ، من الدول والممالك ، . ومن اسبابه أن يرى احد شعبين متجاورين أو متمازجين الشعب الآخر قد انسلخ من تقاليده السخيفة ، وعاداته الضارة ، واستبدل بها ما عزّ به جانبه ، واتسعت في هذه الحياة مذاهبه ، فصلح حاله ، وكبرت في السعادة آماله ، وماذا عسانا نستفيد من تعداد الاسباب اذا كنا نجهل الموانع التي تزاحمها فتحول دون تأثيرها او لم يكن لنا سبيل للخوض فيها ؟

انما عددنا ما عددناه تمهيداً لذكر مثال من امثلة الاستعداد في الشعوب الاسلامية التي يضرب بها المثل في التأخر بعد التقدم والانخفاض بعد الارتفاع وهو ما كان من مسلمي الهند — دخل الانكليز بلاد الهند فكان أقرب الناس الى الاستفادة منهم الوثنيون الذين كانوا من قبل دون المسلمين في كل علم وعمل فطفق الوثنيّ يتعلم ، والمسلم يتحسر ويتألم ، أو يشكو في نفسه ويتظلم ، حتى مرّ الزمن الطويل ، الذي انقرض به جيل وتجدد جيل ، والمسلم ينادي اللغة الانكليزية ، ويكفر متعلم العلوم الاوربية ،

فلما رأى المسلمون نتائج ذلك باتساع ثروة الوثنيين وكثرة الموظفين فيهم واجتماع شملهم ونفوذ كلمتهم استعدّ افراد منهم الى معرفة الحقيقة ، ووجوب سلوك الطريقة ، ومن فضل الله على الناس انهم كلما استعدوا لشيء يسر لهم اسبابه وافاضه عليهم بها فكان اعلاهم همة واقواهم عزيمة هو الساعي الاول والداعي الى العمل وهو السيد احمد خان فأسس مدرسته الشهيرة في مدينة عليكده ودعا قومه الى التربية الصحيحة والتعليم القويم ، ونبذ ما كانوا عليه من اسباب الخمول القديم ، فأجابه النزر اليسير ، وكافأه الجماهير بالتفسيق والتكفير ، ولولا حماية الحكومة الانكليزية له ومساعدتها اياه لأخرجوه او قتلوه . حتى اذا ما ظهرت في هذه السنين آثاره وتبين لمسلمي الهند ان الخير انما يرجى لهم من تلامذته ، وان السعادة انما تفيض عليهم من ينبوع مدرسته ، أشادوا بذكره ، وعظموا من امره ، واعترف العلماء والجهلاء ، والاذكياء والاغبياء ، بأنه المصلح العظيم ، والمجدد الحكيم ، والامام العليم ، ولو قام فيهم بهذه الدعوة منذ خمسين سنة لما وجد منهم مليا ، ولا صادف مصغيا ،

هذا هو السيد احمد خان الذي كان السيد جمال الدين الافغاني ممن يتهمه بالمروق من الدين ، والتصدي باغراء الانكليز لإفساد عقائد المسلمين ، والسيد جمال هو من اعظم المصلحين ، والحكماء الراسخين ، وقد كان يتهم من بعض الناس في مصر بمثل ما يتهم به السيد احمد خان من بعض الوجوه . ألا يدلنا هذا على ان مصر أبعد من الهند عن الاستعداد ؟ بلى واني اذكر في هذا المقام كلمتين احداهما قالها مؤرخ مسيحي وهي : ان السيد جمال الدين جاء قبل وقته بخمسين سنة فالمسلمون لما يستعدوا

لفهمه ، والاسترشاد بعلمه ، . والثانية قالها صاحب اكبر جريدة اسلامية فى الهند وهي : ان المصريين لا يزالون مغترين بمثل ما كان عليه الهنديون منذ خمسين سنة — مغترين بما بقي لهم من الحكام وفضلات الايام فلا ينتبهون حتى يفقدوا كل شيء حتى الاسماء الاسلامية فى كراسي الامارة والحكم كما وقع لاخوانهم الهنديين

اقول وان لم يصح حديث التجديد فى كل مئة سنة : لا يكاد يمر على أمة كأمتنا قرن من القرون يخلو من امام عليم يصلح لتولّي زعامة الاصلاح وانما تظهر آثار الرجال باستعداد اقوامهم ولذلك كان فيهم من يكتم علمه لانه لا يجد له حَمَلَة كما نقل عن بعض الأئمة ومنهم كان يغلبه لسانه او قلمه على الافصاح بشيء من الحق فيقابله الناس بالإعراض ، ويحسبونه من معضلات الامراض ، او يترك سدى ، ويُرمى كالشيء اللَّقَا ، فالامام الغزالي صرح برأيه فى اصلاح المسلمين ، بعد ما بلغ رتبة الامامة فى جميع علوم الدين ، ولكن لم يوجد من يعمل برأيه القويم ، ولا من يزن بما وضعه من (القسطاس المستقيم) ، وكذلك الامام احمد بن تيمية لم يترك بدعة الا وفنّدها ، ولا سنة الا ودعا اليها وأيدها ، ولكنه لم يؤخذ بارشاده الا بعد قرون حيث جددت الدعوة اليه من قوم مستعدين له من بعض الوجوه . على ان اظهار الحق خير من كتمه واخفائه فان لم يفد فى الاصلاح والاسعاد ، فلا بد ان يفيد فى التهيئة والإعداد ، ولا شك انه يوجد فى كثير من البلاد التى استحوذ عليها الجهل من يصلح للامامة ، وللقيام بالزعامة ، فان لم يقدروا على الاصلاح فلا بد أن يهيؤا الامة له ويمدّوها لقبوله وربما كان السنوسي السابق وخليفته الحاضر من الممدّين

لا من المصلحين وربما كان أتباعه قد استعدوا لنهضة عملية . أما المصريون فقد ظهر فيهم شيء قليل من بوادر الاستعداد للاصلاح المعنوي والمادي ويرجى نموّه ببقاء الحرية ودوامها .

كما مضت سنة الله تعالى فى جعل الاصلاح البشري والاسعاد الكسبي على قدر الاستعداد جرت سنته كذلك فى التكوين والايجاد فانه قدّر لكل مكوّن من المكونات اجلا محدوداً يستعد فيه للظهور بشكل من الاشكال او صورة من الصور « وكل شيء عنده بمقدار » فاذا جاء الاجل الموعود ، ظهر بذلك الشكل فى الوجود ، وذلك من كمال النظام والحكمة « وخلق كلَّ شيءٍ فقدَّرهُ تقديراً » ثم انه قدره بالتدريج فى ازمنة متعاقبة عبر عنها بالأيام «الذي خلق السموات والارضَ وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرشِ الرحمنُ فاسألْ به خبيراً »

﴿ باب العقائد من الامالي الدينية ﴾

(تتمة الدرس (٣٠) من وظائف الرسل عليهم السلام)

المسئلة (٧٣) الوظيفة الخامسة — حدود العقوبات واحكام المعاملات :

خلق الانسان ضعيفاً وارتقى بالتدريج ولما تألفت المجتمعات من البيوت والشعوب والقبائل احتاجت للوازع والمسيطر الذي يمنع ما يولده التنازع فى المصالح والمنافع الاجتماعية من البغي والعدوان ويؤدب الذين تطغى بهم الشهوات فيجنون على انفسهم وعلى الناس . ولذلك اتخذ الناس القضاة والحكام من رؤساء الدين والدنيا ولكن الحاكم والامير اذا لجأ الى رأيه واتبع هواه فى حكمه يضل عن سبيل الحق والعدل فلا تقوم مصلحة الناس